مجلة إنسانيات معاصرة (Revue Inssaniyate Mouãssira)
المركز الجامعي صالحي أحمد – النعامة -
ISSN : 2830 - 8050
المجلد: 01 العدد: 02 سبتمبر 2022 م الموافق لـ: صفر 1444 هـ

الشعر الشعبي الجزائري وثيقة لتأريخ الأحداث
(نماذج لبعض شعراء الساورة)

د. الطيب عطاوي
أستاذ محاضر (أ)
بالمركز الجامعي "صالحي أحمد" النعامة (الجزائر)

ارتبط الشاعر الشعبي الجزائري بقضايا وطنه وأمته دائماً فقاسمها الأفراح والأتراح، وأسهم بشعره في نصرة القضايا الوطنية والإنسانية العادلة ولاسيما في الفترات الحرجة والصعبة التي مرت بها الأمة الجزائرية، فانبرى الشعراء الشعبيون في كل جهات الوطن إلى تنظيم الصفوف وتجنيد الناس لمحاربة المحتلين وحمل الجزائريين على التضامن ووحدة الصف والمشاركة في تمويل المقاومات ونصرتها.

تعد الوثائق ذات الحمولة الثقافية ذات أهمية كبيرة في بناء النص التاريخي، فهي ذخائر حية تحفظ ذاكرة الشعوب بمختلف تحولاتها الحضارية والفكرية، والسياسية، والاقتصادية. ويعد الشعر من أهم هذه الوثائق.

فالقصيدة بنية لغوية مركبة يكشف تفاعل عناصرها عن موقف الشاعر، فالشعر ذاكرة وبوح وانفعال وموقف وتجسيد. ولغة خاصة. وخيال يحمل التمرّد على الواقع ليسبح بالمراد والمتمنَّى. ينحو نحو الجمال، ويسعى لدغدغة المشاعر وإثارتها، كما يقوم بتسجيل الملاحم والبطولات، وتوثيق

مجريات المجتمع وأحداثه الاجتماعية، وما يتخلله من تفاصيل، وبهذا المعنى فإن علاقة الشعر مع التاريخ هي علاقة وثيقة.

فقد أدت الكلمة دورًا مشرفًا في جميع وَقائع القوم، فكان الشعر العربي منذ أقدم العصور يُواكِب المعارك والأيام والحروب، وكان للشعراء دورٌ في المعارك لا يقلُّ عن دور الفرسان فيها. فكانوا يحرِّضون على القتال ويذكون رُوحَ الحَمِيَّة والحماسة، ويشجعون المقاتلين، ويَستَثِيرون الهمم والعزائم، ويذكرون الأمجاد والأحساب.

وإذا ما انتَهت المعركة رَثَوا أبطالَها وفرسانَها، وافتخروا بما حقَّقه الجيش من انتصار، وما أَوقَع في جند العدو من هزائم، واتَّخذ الشعراء من ذلك كله وسائلَ فخر ودعاية.

وقد بلغ من مشاركة هذا الشعر في المعركة أنْ صار وثيقةً تاريخية مهمَّة عند المؤرخين والباحثين والدارسين، عند تَسجِيل أيام العرب وحروبها بل هو من أهم الوثائق في هذا الميدان[1].

والشعر الشعبي جزء لا يتجزأ من تراث أي أمة مهما ارتقت إلى أي مستوى حضاري علاوة على ذلك فإن رجال الفكر وعلماء التاريخ يعرفون جيداً ان قديم الشعر الشعبي قد حفظ الكثير من المواقف التاريخية في الجزيرة العربية؛ مثله مثل الفصيح، كما وثق العديد من مسميات المواقع وأثبت تسلسل مسمياتها القديمة مما جعله بمثابة حلقة وصل وإن كان باللهجة

[1]– الشعر كوثيقة تاريخية ، عبد اللطيف المعاني ، شبكة الألوكة ، 2017/03/14 م .

المحلية وهذا لا يعيبه في شيء، فلو كانت العرب تتحدث بلهجتنا الحالية لكان الشعر العربي الفصيح بنفس النمط الذي يسايره الشعبي اليوم فلقد طرق الأخير كافة الفنون التي طرقها الشعر العربي الفصيح إن لم يكن هناك تشابه عظيم في بعض الأفكار والمعاني مما يؤكد أيضاً ان الشعر الشعبي ما هو إلا تواصل لملحمة العربي مع الشعر ولكن حسب ما تمليه عليه البيئة من مفردات سواء في مجال صياغة الكلمة أو مصدرها والذي تشكل البيئة المحيطة الأثر الكبير فيه[1].

وقد أدى الشاعر الشعبي دوراً إعلامياً مهماً في هذا المجال نظرا لغياب وسائل الاتصال والإعلام المتطورة في ذلك الوقت، كما قام برصد مختلف الأحداث التي شهدتها الجزائر، بل وسجّلها في الذاكرة مما يمكنّنا من اعتماد بعض الأشعار الشعبية وثيقة تأريخية لبعض الحوادث التاريخية المهمة التي شهدها الوطن.

وعموماً لقد ظل الشاعر الشعبي، وفي مختلف المقاومات الشعبية الجزائرية، يتغنى بالأبطال والانتصارات ويتجاوب مع الأحداث الكبرى التي تمر بها البلاد، فكان يسارع إلى تسجيلها وتخليدها، وقد وصلتنا الكثير من القصائد التي تؤرخ للمقاومات الشعبية كمقاومة الأمير عبد القادر أو الشيخ بوعمامة أو أولاد سيدي الشيخ..الخ، ودخول فرنسا للجنوب الغربي.

[1] – الشعر الشعبي يساير نمط الشعر الجاهلي ، فالح الشراخ ، جريدة الرياض ، 2005/04/24 م .

إذن؛ العلاقة بين الشعر والتاريخ علاقة الروح بالجسد؛ وعليه فإن "التاريخ يعتمد على الشعر، أي ما قاله الشعراء في فترة معيَّنة لإعادة تركيب الخطابات التاريخية، واعتبار الشعر كأداة مساعدة على ذلك، لأن الحقائق التي يعرضها الشعر سواء أكان قاصداً ذلك أم غير قاصدٍ؛ هي حقائق كليّة لا يمكن للتاريخ أن يتنكر لها، فالنص الشعري يمكن أن يكون أداة مساعدة لأنه تاريخ الذهنيات السائدة، يعكس ميولها وأذواقها، ولأنه يعكس وضعاً اجتماعياً وتاريخياً معيّناً "[1].

ونظرا لأهمية وفعّالية الشعر الشعبي تم اللجوء إليه مرة أخرى في دعم الثورة التحريرية الكبرى وقبلها في تخليد كل الحوادث السعيدة أو الحزينة التي مرت على الشعب الجزائري، ومن الشعر الذي تتغنى به النسوة في تجمعاتهن بمنطقة القصور في الجنوب الغربي التي تصور الشيخ بوعمامة بطلا لا يقهر يثير الرعب والهلع في صفوف الأعداء ويشتت شملهم ما قاله الشيخ "بن علال العطواني":

[1]– صورة فرنسا الاستعمارية في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء، مجلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، سطيف (الجزائر) العدد الثالث ، 2005 ، ص 21 .

عز الملاح غيَّب عني يا سامعين مدفون في بلاد بعيده
الشيخ بوعمامه طوَّاع الكافريـــن خلَّى خصايلو معدوده[1]

وأيضاً كحوادث 8 ماي 1945 ووصف تلك المجازر الرهيبة التي اقترفها المستعمر الغاشم المجرم في حق الأبرياء. ورغم أن هذه المجازر الرهيبة حدثت في سطيف وقالمة وخراطة إلا أن كل الشعراء الجزائريين ومن مختلف جهات الوطن أحسوا ببشاعتها وأبدوا تضامنا كبيرا مع إخوانهم، فنجد الشاعر "أحمد الكرومي" من بشار يستنكر أفعال المستعمر اللاإنسانية قائلا في إحدى قصائده:

شعانبة قلاعين الهانة
غنائمة وعمور معانـا
كل القبايل فتانـــــة

في الخمسة والاربعين بداو القتـــال معركة سطيـف راها عبـــــارة
قتلت لنا شحال شلة من الرجـال ماعفت ماعفات هذي النكارة
والدمعة سايلة على خدي تنهـال في خراطة وقالمة دارت حـــارة[2]

وقد أدت هذه المجازر الرهيبة إلى تعميق الوعي لدى الجزائريين أن الحرية تؤخذ بالقوة مما أثمر بعد عقد من الزمان بتفجير ثورة التحرير المباركة التي أحدثت تغييرا جذريا في حياة الشعب الجزائري، وقد واكب الشعراء

[1] – من قصيدة "الشيخ بوعمامة" للشاعر بن علال العطواني (من مواليد 1898 م بتامترت ببشار) .
[2] – من قصيدة "نوفمبر" للشاعر الشيخ أحمد الكرومي (من مواليد 1914 بالعبادلة ببشار) .

هذا الحدث الكبير بأشعارهم من خلال حثهم الناس على الالتحاق بصفوف الثوار في الجبال ومد كل أشكال الدعم والمساندة لهذه الثورة الفتية التي استمرت سبع سنوات كاملة ذاق خلالها الشعب الجزائري مختلف صنوف التعذيب والإرهاب الاستعماري، وقد خلد الشعراء هذه الأحداث حتى تبقى للأجيال القادمة وسنأخذ كمثال على هذه القصائد بعض الأبيات من قصيدة نوفمبر للشاعر "بن على بلال" من منطقة العبادلة التي يفتتحها بالأبيات التالية:

هذا نوفمبر شهر المعجـــــــــزات صنعوه أولاد الدزاير في الثـــــوره
رسموه أبطال باش يبقى ذكريـــــات خلاوه الاولين للتالي يقـــــــــرا
900 فوق الألف في القرن اللي فات سال وسقسي نعيد لك كيفاه صرا
الربعة والخمسين فيه الحرب بـــدات لا راحة ولا رقاد حتى للنصـــــرا[1]

والأمر نفسه يعبِّر عنه "الشيخ الطيب الغنامي" وهو يصوِّر من خلال أبيات له أيقونة الثورة المجيدة المجاهدة البطلة جميلة بوحيرد، ويذكر سنة سقوطها (1957 م) في يد المستعمر الفرنسي الغاشم الذي كان في بحث مستر عنها؛ يقول:

جرّحْ قلبي وخلّا خلاقي مقديه عداب زينة النسا جميله بوحيـــــرد
سمرا من لبطال كانت قويـــــه متخزره كي السْبعْ في القوّه صنديـد
مادا دارت ديك نار المقديــه مادا دارت ديك الحره ما هي من لعبيد

[1]– من قصيدة "نوفمبر" للشاعر بن علي بلال (من مواليد 1945 بالعبادلة ببشار) .

في يوم الجهاد خرجت بالنيّـــــه في الربعة وخمسين ثورة التمجيـــــد
قنابيل كثيرة زرعتـــــها هـــــــي رهبوها شُطّار ما تقـد عليها أيــد
في السبعه وخمسين طاحت اللبيّه ضربوها برصاص يصحابوها شهيد
ماذا من عذاب قاساتو حيّـــــة ماذا من حروق قعروها بحـديـــــد[1]

وقد واجه الشعب الجزائري الإرهاب الاستعماري بصبر وشجاعة وإيمان عميق بالنصر المؤزر، وأبدى توحدا كبيرا مضحيا بأكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء الأبرار هذا عدا عن المشردين واليتامى والثكالى والمعوقين، وهكذا دفعت الجزائر ثمناً باهظاً في سبيل الاستقلال والانعتاق اللذين لن يرضى الشعب الجزائري عنهما بديلا إلى يوم الدين لأنه شعب أبي لايسكت على ضيم أو ظلم، فيقول "بن علي بلال" عن ذكرى الاستقلال:

في اثنين وستـــــين البلاد تهـنات الخامس جويليا طلعوا الراية الخضـرا
بعد خمسـين عام وحيينا ما فات هذا الشعب العظـــيم مايقبل حقر
التحدي رماو فيها خطـــوات شبان وشابات كراجل ومـــرا[2]

وهكذا استقلت الجزائر بعد كفاح مرير شاركت فيه المرأة الجزائرية إلى جانب أخيها الرجل، وقد خلف المجاهدون وراءهم كل مغريات الحياة من

[1]– من قصيدة "جميلة بوحيرد" للشاعر الشيخ الطيب الغنامي (من مواليد 1976 من شعراء بني عباس ببشار).

[2]– من قصيدة نوفمبر للشاعر بن علي بلال.

مال وتجارة بل وحتى فلذات الأكباد من أجل رفع الهلال والنجمة اللتان لا ترمزان فقط إلى العلم الجزائري بل وتمثلان كذلك الإسلام في مقابل الصليب الذي يرمز للنصرانية ويقول في هذا الشأن الشاعر "سعيداني بن عيسى" في قصيدة "دولتنا قائمة وشنعت في الدول":

أدّات الاستقـلال حرب بلا تحـلال سبع سنوات والرجال مع الهَـجْمَه
وهما متعلقين فوق سطح لجبـــال سمحوا في البَزْ والتجارة والخدمـــه
كانوا متعاهدين في الكلمة الابطال غير إيلا جابوا الهلال مع النجمه
جابوها بالكمال بالقول والأفعـال الإسلام الرفيـــع بها يَتْسَمَّـــى
الكلام نرجموه للناس العقـــــال مولى العينين لازم يبَصَّر الأعمـى[1]

وفي الأخير نقول: إنّ الشعر الشعبي قد تتبع كفاح الشعب الجزائري في جميع مراحله وأطواره بل وساهم في التأريخ لبعض الثورات أو الأحداث التي لانجد لها في بعض الأحيان مصادر تاريخية لتوثيقها كمارأينا.

وإن الروح الوطنية تتجلى بوضوح في هذا الشعر وهي تقوم أساسا على الدعوة إلى الجهاد والدفاع عن الوطن والدين الاسلامي والتفاني في صون القيم الثورية الخالدة، وبهذا فإن الشعر الشعبي ظل يتغنى بالوطن والوطنية ويدعوا إلى التشبث بالقيم النضالية دائما كلما كان الوطن في حاجة إلى أبنائه، فالشاعر الشعبي لم يتخل عن واجبه في استنهاض الهمم

[1]– من قصيدة "دولتنا قائمة وشنعت في الدول" للشاعر سعيداني بن عيسى (من مواليد 1912 توفي 2002 من شعراء العبادلة ببشار).

وغرس الروح الوطنية لدى الأفراد على مر التاريخ الجزائري ولا يزال إلى اليوم يقم بدوره المنوط به على أكمل وجه، ورغم قيام بعض الدارسين بالبحث في هذا المجال كما فعل الدكتوران التلي بن الشيخ والعربي دحو إلا أن هذا المجال مايزال محتاجا إلى العديد من الدراسات الأخرى المتعمقة[1].

وبعد فإن الشعر الشعبي الذي عاش أكثر من ثمانمائة سنة أي منذ عصر بني هلال إلى يومنا هذا يعد موروثاً شعبياً ثرياً بالتاريخ والوقائع والدراسات الاجتماعية وأحوال الناس ومعايشتهم لواقعهم ويعرف أهمية هذا الشعر عرب الجزيرة خصوصاً.

[1] – الطيب بن دحان، تجليات الوحدة الوطنية من خلال القصيدة الشعبية، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت(13 – 14 أكتوبر 2002)، إصدارات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ص388 .